الفصل التاسع

انهيار النظام الاعلامى الشرقى

رغم كثرة ماكتب عن المتغيرات فى الكتلة الشرقية ، الا ان الجانب الاعلامى من تلك المتغيرات لم ينل ما يستحقه من البحث او التحليل . . . !

وقد لايرجع السبب فى تلك الظاهرة الى تقصير فى الاهتمام ، بقدر مايعود الى ندرة المعلومات فى مجال الاعلام ، وتوافرها بكثرة فى مجالى السياسة والاقتصاد ، وآمل ألا نتهم بالتجاوز حين نقول ان دور الاعلام فى المتغيرات بالكتلة الشرقية لايقل عن دور السياسة او الاقتصاد ، او غيرهما من العوامل المؤثرة ، وقد تأكد فى بعض الحالات ان اهمية الاعلام ودوره قد تتفوق على غيره من العوامل . . !

وقد يشجعنا ذلك على طرح تفسير يرى الاعلام كمحرك رئيسى لما حدث من متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية فى الاتحاد السوفيتي ودول شرق اوربا ، وذلك اعتمادا على حقيقة ان وسائل الاعلام فى تلك المجتمعات شكلت رأس الحربة التى حطمت الابواب الموصدة امام تلك المتغيرات ! كذلك فان التطور الهائل لتكنولوجيا الاتصال فى السنوات الاخيرة ، قد مكن وسائل الاعلام من اختراق الحواجز بين الشرق والغرب ، وهدم الستار الحديدى الذى فرض لسنوات طويلة على شعوب الاتحاد السوفيتى ودول شرق اوربا ، ودفع تلك الشعوب الى التطلع لمحاكاة النموذج الغربى فى الحياة .

ومدخلنا الى التعرف على اهمية الاعلام ودوره فى المتغيرات بالكتلة الشرقية ، يمر بثلاثة محاور ، فى المحور الاول نبحث فى العلاقة بين البروسترويكا والجلاسنوست (اى اعادة البناء والعلنية) واهمية الاعلام ودوره بالنسبة لهما ، وفى المحور الثانى نرصد الدور الذى لعبه الاعلام الغربى - مستعينا ومستفيدا بتكنولوجيا الاتصال الحديثة - فى تلك المتغيرات ، اما المحور الثالث والاخير ، ففيه نطرح تساؤلات حول التأثير المتوقع لتلك المتغيرات على النظام الاعلامى الشرقى .

- ١ -
الاعلام بين البروسترويكا والجلاسنوست

ان الهدف الرئيسى للرئيس السوفيتى جورباتشوف هو « تحديث الاتحاد السوفيتى » وعملية التحديث غالبا ما تتطلب احداث انجازين ، الاول : هدم البناء القديم ، والثانى وضع اسس وقواعد بناء جديد . وهو نفس الطريق الذى سار عليه جورباتشوف ، فقد قام اولا بمحاولة تصفية اشتراكية ستالين وبريجنيف باسسها البالية ، ثم قام ثانيا بمحاولة بناء اسس جديدة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية للمجتمع السوفيتى .

ولنمعن النظر فى مدلول اصطلاح « البروسترويكا » الذى جاء به جورباتشوف ، انه يعنى اعادة البناء ، فهو يتضمن الهدم ، والبناء ، اذ لايمكن عقلا تصور بناء مجتمع جديد ، دون ان يسبقه هدم للمجتمع القديم ،

اما اداة جورباتشوف لاعادة بناء المجتمع السوفيتى ، فقد كان الجلاسنوست ، او العلنية ، او المكاشفة ، او المصارحة ، وهدفها خلق قوة دفع بين الجماهير السوفيتية لتحقيق اوسع قدر من المشاركة الشعبية فى عملية اعادة البناء من ناحية ، وللمساعدة فى مواجهة واضعاف القوى المعارضة للبروسترويكا من ناحية ثانية .

ويكشف جورباتشوف فى كتابة « بروسترويكا » عن المعادلة التى تربط بين البروسترويكا والجلاسنوست حين يقول : « بدون العلنية لا ولن تكون هناك ديمقراطية ، وبدون ديمقراطية لا ولن تكون اشتراكية عصرية »[١] .

اما وسائل العلنية وادواتها فهى بالضرورة وسائل الاعلام من صحافة وراديو وتليفزيون واتصال شخصى فى الندوات واللقاءات المباشرة مع الجماهير . لذلك فقد اضاف جورباتشوف الى معادلته التى تربط بين

البروسترويكا والجلاسنوست عصرا جديدا وهو الاعلام ، ففى لقاء له مع اتحاد الصحفيين السوفييت فى ربيع عام ١٩٨٩ م قال :

« بدون وسائل الاعلام الحرة لا ولن تكون هناك علنية ، وبدون العلنية لا ولن تكون هناك ديمقراطية ، وبدون ديمقراطية لا ولن تكون هناك اشتراكية عصرية »[٢] العلنية اذن ممثلة فى وسائل الاعلام الحرة هى حجر الزاوية فى نظرية جورباتشوف عن اعادة البناء .

والمتصور انه لم يكن امام جورباتشوف سوى العلنية لتطبيق نظريته فى اعادة بناء المجتمع السوفيتى ، انها « ضرورة » اكثر من كونها « اختيار » فهو لم يكن يستطيع - حتى لو اراد - ان يلجأ لاسلوب دكتاتورية الحزب او الطبقة ، كأداة لتحديث المجتمع كما فعل من قبله لينين وستالين فى الاتحاد السوفيتى او ماوتسى تونج فى الصين ، فما كان يصلح كأداة لتحديث المجتمعات فى النصف الاول من القرن العشرين ، لم يعد ينفع العمل به فى نهاية القرن .

فى عصر الثورة العلمية الهائلة ، وفى ظل تطور تكنولوجيا الاتصال والاعلام والتواصل بين الشعوب ، لم يعد فى مقدرة حزب مهما بلغت قوته ولا فى مقدور فرد مهما وصلت حادبته ان يصادر حركة المجتمعات وان يحول جماهير الشعوب الى مجرد متفرجين ، فالانسان المعاصر وخاصة فى الشعوب المتقدمة ، لم يعد يقبل أن يكون مجرد وقود لدفع عجلة التحديث مهما قيل له عن فوائد التحديث ، انه لايقبل أقل من ان يكون مشاركا فى اتخاذ قرار التحديث ومرافقا لتنفيذه ، وطرفا اصيلا فى تقييم بنائه .

وهذا بالضبط ماتوصل اليه جورباتشوف ، وهو ايضا ما يفرق بين

الخمسينيات حتى منتصف الستينيات ، فقد حاول خروتشوف ان يقوم بالتغيير فى الاتحاد السوفيتى من داخل الحزب الشيوعى وعن طريقه ، ولم يسعى لاشراك الشعب السوفيتى فى التغيير ، فكان ان اطاح الحزب به ، بينما وقف الشعب السوفيتى متفرجا . . !

ولكن كيف توصل جورباتشوف إلى هذه النتيجة ؟

لقد رصد خلال تجربته الطويلة فى العمل بمختلف مستويات الحزب الشيوعى السوفيتى ، وفى جهاز المخابرات «K.P.J» واثناء توليه العديد من المناصب التنفيذية ، الحقائق التالية :

- انخفاض مستوى انتاجية العمل فى الاتحاد السوفيتى ، مقارنه بمجموعة البلدان الرأسمالية الصناعية وبالذات الولايات المتحدة الامريكية واليابان .
- تأخر الاقتصاد السوفيتى عن تطوير وتطبيق انجازات الحلقات الاحدث للثورة التكنولوجية .
- جمود آليات تخطيط الاسعار وإدارة المشروعات .
- سوء استخدام الملكية العامة بالفساد والتسيب
- تخلف الصناعة السوفيتية مقارنة بالمقاييس العالمية الاحدث ، وانخفاض الكفاءة والجودة فى الإنتاج وارتفاع التكلفة واهدار الموارد فضلا عن ضعف القدرة التنافسية فى السوق العالمية وغلبة المواد الأولية فى هيكل الصادرات .

وفى بحثه عن أسباب ومبررات تلك المظاهر السلبية ، فقد وضع جورباتشوف يده على العوامل التالية :

- انفراد نخبة بيروقراطية فى الحزب والدولة بالسلطة واحتكارها لعملية صنع وتنفيذ القرار السياسى

ـ سلبية ولا مبالاة الجماهير المبعدة عن المشاركة السياسية الحقيقية .
ـ ضعف حوافز النشاط الفردى .
ـ تقييد حرية البحث العلمى والابداع الفكرى .
ـ إهدار حقوق الانسان وحرياته الاساسية .

وبذلك توصل جورباتشوف الى حقيقة مؤداها ان الظواهر السلبية فى التجربة الاشتراكية السوفيتية ، ترجع الى افتقادها للديمقراطية[٣] .

وفى كتابه « بروسترويكا » وفى مختلف خطبه واحاديثه ، فإن جورباتشوف يعنى بإعادة البناء ، اقامة الاشتراكية العصرية ، ويعنى بالعلنية ، الديمقراطية .

وهكذا فإن جورباتشوف يستخدم سلاح العلنية أو الديمقراطية لهدم أسس الاشتراكية الستالينية وبناء الاشتراكية العصرية ، ففى مواجهة انفراد نخبة بيروقراطية بالسلطة واحتكارها لعملية صنع وتنفيذ القرار ، يطرح للنقاش امكانية التخلى عن دكتاتورية البروليتاريا وانفراد الحزب الشيوعى بالسلطة .

وفى مواجهة سلبية ولا مبالاة الجماهير المبعدة عن المشاركة السياسية الحقيقية ، يطرح للنقاش امكانية وجود التعددية السياسية . وفى مواجهة القيود المفروضة على حرية البحث العلمى والابداع الفكرى واهدار حقوق الانسان وحرياته الاساسية ، يطرح للنقاش اطلاق حرية الفكر والتعبير وحرية الاجتماع والسفر ، وحرية الصحافة وبقية وسائل الاعلام .

وقد نظر جورباتشوف الى حرية الصحافة ووسائل الاعلام الاخرى ـ وله الحق فى ذلك ـ باعتبارها حجر الزاوية والمظهر الاساسى لمدى توافر بقية الحريات فى المجتمع ، وذلك لعدة اعتبارات وأهمها :

ـ ان وسائل الاعلام هى الاداة الفعالة للمراقبة الشعبية على نشاط جميع أجهزة الدولة بدون استثناء .

ـ ان وسائل الاعلام هى القادرة وحدها على رفع مستوى الوعى السياسى لدى الجماهير ، فهى التى تستطيع ان تقول للناس : ماذا جرى بالأمس ؟ وما الذى يجرى اليوم ، ولأى شىء نسعى فى الغد ؟ ولذلك فهى تساعد الجماهير على الانخراط فى عملية إعادة البناء .

ـ انه بدون وسائل الاعلام لا يمكن التعبير عن وجهات النظر والآراء المختلفة المعبرة عن مصالح كافة فئات المجتمع وتجمعاته .

ـ ان وسائل الاعلام هى المؤهلة وحدها لاستخدام سلاح النقد من القاعدة ، كأداة لاختبار سياساتنا ولمكافحة الظواهر السلبية والتحذير منها .

ويقول جورباتشوف فى هذا الصدد : « لابد ان نعرف ان النقد دواء مر ، ولكن الامراض تجعل منه شيئا ضروريا نشمئز منه ، ولكنك تضطر لتناوله ، وان ابطاء وسائل الاعلام فى عملية النقد ، يعنى إلحاق الضرر بعملية اعادة البناء »(٤) .

ويعترف جورباتشوف بالدور الذى قامت به وسائل الاعلام السوفيتية فى دفع عملية إعادة البناء ، فيقول : « يمكن القول انه لم يكن بمقدور عملية اعادة البناء بلوغ المستوى الذى عليه اليوم فى مناقشة كافة معضلات عملية التغيير الواسعة والمتناقضة والمتعددة الجوانب ، لو لم تنخرط فى الحال وسائل الاعلام الجماهيرى فى هذه العملية وتمارس دورها بنشاط وبالشكل اللائق »(٥) .

واذا كان جورباتشوف قد أدرك اهمية وسائل الاعلام الجماهيرى وخاصة الصحافة ، فلم ينس دور الاتصال الشخصى فى الدعوة لفكره الجديد ، وقد حرص على الاتصال الشخصى بكافة الفئات

والتجمعات ، وكان وهو يتحرك فى الشارع ويختلط بالناس العاديين يعمل على ايجاد رأى عام فى مواجهة خصوم التغيير. وقد أدرك جورباتشوف بخبرته الطويلة فى العمل السياسى ان المثقفين السوفييت هم أكثر فئات المجتمع السوفيتى ترحيبا بإعادة البناء ، لذلك حرص على ان يكون لهم دور متميز فى وسائل الاعلام ، وقد اتاح للكثيرين منهم منافذ فى اجهزة الاعلام وخاصة الكتاب والادباء والمفكرين والصحفيين السوفييت الذين اضطرهم الاضطهاد فى الفترات السابقة الى الهجرة خارج الوطن .

وعقب المؤتمر لثامن لاتحاد الكتاب السوفييت الذى عقد فى موسكو عام ١٩٨٦م ، سمح بنشر كل ما كان ممنوعا من النشر فى الفترة السابقة ومنها رواية سولجنستين « أرخبيل دائرة معسكرات الاعتقال » ورواية بستريناك « دكتور زيفاجو » ، ورواية نفاردوفسكى « بحق الذكرى » ، ورواية اناتولى ريباكوف « اولاد شارع أربات » ، ورواية ايتماتوف « النطع » ، وغيرها من الاعمال الممنوعة والتى تنسب لما سمى بالادباء المنشقين ، وشهدت نفس الفترة ايضا نشر واصدار العديد من المقالات والكتابات النقدية التى تتناول الفترة السابقة ، كما تزايدت فرص الحوار الحر ، والتى أخذ بعضها شكل الاتهامات المتبادلة ، وقد شملت هذه الاتهامات كتابا بارزين امثال فالنتين راسبوتين ويورى بونداريف وغيرهما ، وقد طال الاتهام ألمع أسماء الادب السوفيتى مثل مكسيم جوركى ومايكوفسكى تولستوى وشولوخوف ويسينين وتفاردفسكى وفاديف وغيرهم ، ولم ينج اتحاد الكتاب السوفيتى وغيره من الاتحادات الثقافية مثل اتحاد الصحفيين واتحاد الفنانين من رياح التغيير التى هبت على المجتمع السوفيتى بأكمله ، حيث تعرضت الى حملة نقد واسعة

واتهمت بأنها تحولت الى دوائر بيروقراطية وتخضع مباشرة لسياسة الحزب الشيوعى الثقافى[٦] .

وقد أتت سياسة جورباتشوف تجاه المثقفين بنتائجها المرجوة ، فحين اجريت انتخابات جديدة فى الاتحادات الثقافية والتى شملت اتحاد الصحفيين واتحاد الكتاب فقد مارس المشاركون فيها النقد والنقد الذاتى وهو الأمر الذى أدى الى عدم انتخاب القادة السابقين لهذه الاتحادات ، وضمت الهيئات الجديدة المنتخبة كثرة غالبة من انصار إعادة البناء .

- ٢ -
أثر الاعلام الغربى
على المتغيرات فى الكتلة الشرقية

لقد لعب الاعلام الغربى دورا لا يمكن انكاره فى المتغيرات الحاصلة اليوم فى الكتلة الشرقية ، وقد استطاع ذلك الاعلام ، مستعينا ومستفيدا من التطور الهائل فى تكنولوجيا الاتصال والاعلام ، ان يخترق الحواجز بين الشرق والغرب ، وأن ينفذ من الستار الحديدى الذى فرض على شعوب الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وان يدفع تلك الشعوب الى التطلع لمحاكاة النموذج الغربى فى الحياة .

واذا كان حاجز اللغة والرقابة قد قللا من انتشار الصحف الغربية الدولية بين القراء فى الكتلة الشرقية ، واذا كان « حراس البوابة » فى وسائل الاعلام الشرقية قد وقفوا بين برقيات وكالات الانباء الغربية والنشر أو الاذاعة فى تلك الوسائل ، إلا أن البث الاذاعى الغربى ، والبث التليفزيونى الغربى ـ وإن كان بدرجة أقل ـ قد استطاعا ان يصلا الى اعداد متزايدة من المستمعين والمشاهدين فى الكتلة الشرقية ، ذلك أن عامل اللغة لا يشكل عائقا دون وصول البرامج الاذاعية الموجهة الى المستمعين فى الكتلة الشرقية فهذه البرامج تقدم بكافة اللغات المستخدمة بين شعوب الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا ، بل وببعض اللهجات المحلية ، أما التليفزيون ، فإن طبيعة برامجه التى تعتمد بشكل أساسى على فن الصورة المتحركة ، تقلل كثيرا من أهمية اللغة ، وإن كانت لا تلغيها .

وبالنسبة لعمليات التشويش على البرامج الاذاعية والتليفزيونية ، والتى لعبت دورا مشابها لدور الرقابة على الصحف وعلى برقيات وكالات

الانباء ، فقد فقدت منذ بداية الثمانينات تأثيرها وجدواها ، حيث ساعد التطور التكنولوجى لوسائل الاتصال الدولى على ابتكار العديد من الطرق للتحايل عليها ، فضلا عن تكاليفها الباهظة والتى تصل فى بعض الأحيان الى ما يوازى تكلفة الاذاعة المراد التشويش عليها ، كما ان ايقاف التشويش الاذاعى والتليفزيونى المتبادل بين الشرق والغرب ، كان واحدا من أسس الوفاق بين المعسكرين ، بل واعتبر من المؤشرات الهامة لاثبات مدى صدق النوايا فى استمرار سياسة الوفاق .

ومن المفارقات التاريخية ان الاتحاد السوفيتى كان فى مقدمة الدول التى استفادت من اكتشاف امكانيات الموجة القصيرة فى البث الدولى ، فأقامت اذاعة موجهة الى غرب أوربا باللغة الانجليزية ، وقد بلغ من تأثير هذه الاذاعة ، انها أثارت بريطانيا بحيث سارعت بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٢٧[٧] . ولكن ندرك حجم الارسال الاذاعى الموجه من الغرب الى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا ، يكفى أن نشير فقط الى جهود دولتين غربيتين وهما الولايات المتحدة وبريطانيا .

ان الولايات المتحدة الامريكية تبث خمس اذاعات موجهة الى شعوب الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا ، وفى مقدمتها اذاعة صوت امريكا Voice of America وهى إدارة حكومية ، وتخدمها ١١٣ محطة ارسال فى الولايات المتحدة وخارجها ، وتذيع ٧٧٦ ساعة اسبوعيا الى مختلف انحاء العالم ، من بينها ٤٦٠ ساعة موجهة الى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا ، وتقدم برامجها بخمس وثلاثين لغة ، منها ١٧ لغة مستخدمة فى الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا[٨] .

وهناك اذاعة RIAS وهى اذاعة امريكية تبث من برلين الغربية وتعمل ٢٤ ساعة يوميا ، وهى موجهة بالاساس الى المانيا الشرقية .

وتوجد اذاعة راديو أوربا الحرة Radio Free Europe وهى تبث برامجها من ميونيخ بالمانيا الغربية وتديره اللجنة الوطنية لأوربا الحرة ، وهى لجنة تسيطر عليها المخابرات الامريكية CIA وتوجه برامجها الى دول شرق أوربا . وهناك راديو الحرية Radio Liberty ويبث برامجه من ميونيخ بالمانيا الغربية ويذيع برامجه بعشرين لغة من اللغات المستخدمة فى شرق أوربا والاتحاد السوفيتى ، وهو يركز على تناول الاحداث التى تقع فى الكتلة الشرقية من وجهة نظر غربية .

وهناك أخيرا اذاعة القوات المسلحة الامريكية والتى تبثها القوات الامريكية المرابطة فى المانيا الغربية ، وتغطى برامجها كافة أراضى المانيا الشرقية .

وقد قدرت إحدى لجان الكونجرس التكلفة السنوية للانشطة الاذاعية الامريكية الموجهة الى الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا بنحو ٥٠٠ مليون دولار(٩) .

أما هيئة الاذاعة البريطانية B.B.C فإنها تذيع ٧٠٠ ساعة اسبوعيا منها حوالى ٣٢٠ ساعة موجهة الى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا ، وهى تذيع بعشر لغات من اللغات المستخدمة فى الكتلة الشرقية وتستخدم ٧٠ محطة ارسال داخل انجلترا وخارجها(١٠)

ومن المهم أن نشير الى أنه لا تخلو دولة فى المعسكر الغربى ، وبالذات دول غرب أوربا من اذاعة موجهة الى الكتلة الشرقية

واذا انتقلنا الى مجال البث التليفزيونى فمن المؤكد أن أرسال محطات التليفزيون فى المانيا الغربية يغطى كامل أراضى المانيا الشرقية منذ عدة سنوات ، كذلك فان الارسال التليفزيونى فى دول غرب أوربا يغطى مساحات غير قليلة من دول الكتلة الشرقية المتاخمة لها ، وقد أقامت دول

غرب أوربا محطات تقوية للارسال التليفزيونى بالقرب من حدودها مع دول الكتلة الشرقية ، مكن هذا الارسال من الوصول بوضوح الى العديد من المناطق فى دول شرق أوربا .

كذلك فقد تم انشاء شبكة اليورفزيون Eurovision والتى تضم إلى جانب بريطانيا وفرنسا عددا اخر من دول غرب أوربا ومنها المانيا الاتحادية وايطاليا والنمسا[١١] ، ثم أنشات شبكة النوردفزيون والتى تربط بين محطات التليفزيون فى الدول الاسكندنافية وتضم النرويج والسويد والدانمرك وفنلندا وايسلندا[١٢] . وقد أدى ذلك الى تقوية الارسال التليفزيونى فى دول غرب أوربا ، وهو الأمر الذى مكن هذا الارسال من الوصول الى عدة مناطق فى شرق أوربا .

ومن المهم أن نشير الى أن عقدى السبعينيات والثمانينيات قد شهدا نقل البرامج التليفزيونية عبر المحيطات والقارات بعد اطلاق أقمار الاتصال الصناعية Communication Satellites وقد كونت الولايات المتحدة الامريكية والدول الغربية الرابطة الدولية لاقمار الاتصال والمعروفة باسم انتلسات Intelsat وقد اطلقت الرابطة عدة أجيال من الأقمار الصناعية باسم انتلسات ، وهى تغطى الآن كافة انحاء الكرة الأرضية بما فيها الكتلة الشرقية ، وتخدم ٨٠ محطة أرضية فى ٦٠ دولة[١٣] .

ومنذ سنوات قليلة ، أصبح فى امكان أجهزة التليفزيون المنزلية التقاط الارسال التليفزيونى من القمر الصناعى مباشرة ، دون حاجة الى اعادة البث من المحطات الأرضية ، وذلك باستخدام هوائيات خاصة .

ولكن من المشكوك فيه ، تسرب مثل هذه الهوائيات الى المواطنين فى الكتلة الشرقية ، اذ يمنع استيرادها من الخارج أو انتاجها محليا ... !

اما عن الكيفية التى يؤثر بها البث الاذاعى والتليفزيونى على شعوب الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا ، فهى تتنوع وتتشكل حسب تطور

الاحداث فى الكتلة الشرقية ، ولكن يبرز من بينها الاستخدام المكثف للاساليب الاعلامية التالية :

- تقديم تغطية اخبارية للاحداث بشكل عام وللاحداث فى الكتلة الشرقية بشكل خاصة من وجهة نظر غربية ، وبأسلوب يوحى بأن القرار فى الدول الاشتراكية يتم فى غير صالح شعوب هذه الدول .
- الترويج للأفكار الليبرالية بجناحيها : الاقتصادي المتمثل فى المبادرة الفردية ، والسياسى المتمثل فى التعددية السياسية والديمقراطية ، وفى الوقت نفسه ابراز مساوىء الاشتراكية بجناحيها : الاقتصادى المتمثل فى ملكية الدولة لوسائل الانتاج ، والسياسى المتمثل فى دكتاتورية البروليتاريا وانفراد الحزب الشيوعى بالسلطة .
- تقديم صورة جذابة لأسلوب الحياة فى المجتمعات الغربية ، وابراز مدى الرفاهية والحرية التى يتمتع بها افراده ، وفى الوقت نفسه تقديم صورة سيئة لأسلوب الحياة فى المجتمعات الشرقية ، مع التركيز على افتقاد الحريات والازمات الاقتصادية وعدم توافر أدوات الرفاهية .
- توظيف الامكانيات التكنولوجية وتطور الأساليب الفنية فى الغرب بالاضافة الى اتباع أحدث وسائل الحرب النفسية وأساليب الاقناع فى جذب أكبر عدد من المستمعين والمشاهدين فى الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا للبرامج الاذاعية والتليفزيونية الغربية .

ويعترف تقرير للجنة الشئون الخارجية بالكونجرس حول كسب الحرب الباردة والهجوم الايديولوجى الامريكى "Wining the cold war : the U.S Ideological offensive" بدور الاعلام الامريكى فى التأثير على شعوب الدول الاشتراكية حيث جاء به :

" يمكننا أن نحقق بعض أهداف سياستنا الخارجية من خلال التعامل المباشر مع شعوب هذه الدول بدلا من التعامل مع حكوماتها ، ومن

خلال استخدام أدوات وتقنيات الاتصالات الحديثة يمكننا اليوم أن نصل الى قطاعات كبيرة أو مؤثرة من السكان فى هذه البلاد ، وأن نقوم باعلامهم والتأثير فى اتجاهاتهم بل ويمكن فى بعض الأحيان أن نحرضهم على سلوك طريق عمل معين ، وهذه المجموعات يمكنها أن تمارس ضغوطا ملحوظة وحتى حاسمة على حكوماتها .

لقد وضع هذا التقرير فى بداية الثمانينيات ، وكأنه يرسم بدقة ما حدث بالفعل فى نهايتها . . !

وقد اعترف جورباتشوف فى كتابه « البروسترويكا » بخطورة الدور الذى لعبه الاعلام الامريكى فى التأثير على شعوب الاتحاد السوفيتى وذلك بقوله :

« إن الاعلام الامريكى يصور للمواطنين السوفيت أن أمريكا هى الجبل المتلألىء ، فى حين يصور الاتحاد السوفيتى باعتباره ، امبراطورية الشر »[١٤] .

ومن المهم أن نشير الى ندرة الدراسات والبحوث العلمية التى تكشف عن حجم ومدى ونوعية تأثير الاعلام الغربى على مسار المتغيرات فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا ، ذلك أن بحوث التأثير بطبيعتها تتطلب دراسة الجمهور المستقبل للرسالة الاعلامية الغربية ، عن طريق البحوث الميدانية واستطلاعات الرأى العام ، وهو الأمر الذى لم يكن متاحا حتى فترة قريبة فى الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا ، أما ما تم القيام به من بحوث ودراسات فى الفترات السابقة ، فقد كانت تحاط بسرية كاملة ، ويحظر نشر نتائجها بدعوى حماية الأمن القومى . ورغم ذلك فمن الممكن رصد بعض الشواهد التى تبين تأثير الاعلام الغربى على مجريات الأحداث فى الكتلة الشرقية ، ومن أبرز هذه الشواهد وأكثرها دلالة ، أن الحركات التى تقود التغيير فى الاتحاد

السوفيتى ودول شرق أوربا ، ترفع من الشعارات وتتبنى من الأفكار والسياسات ما يتطابق تماما مع ما عملت من أجله وسائل الاعلام الغربية الموجهة الى الكتلة الشرقية فهذه الحركات ترفع شعارات الحرية والديمقراطية واصلاح ما أفسده الحكم الشيوعى ، وهى تتبنى افكارا وسياسات تدعو الى انهاء احتكار الحزب الشيوعى للسلطة ، والسماح بالتعددية السياسية ، والاعتراف بالمبادرة الفردية واعتماد حق الملكية الفردية لوسائل الانتاج ، واحترام حقوق الانسان وحرياته الأساسية .

وقد أجرى استطلاع للرأى شمل خمسة آلاف من الالمان الشرقيين الذين نزحوا الى المانيا الغربية بعد هدم سور برلين ، كشفت نتائجه أن ٨٦٪ كونوا فكرتهم عن أسلوب الحياة فى الغرب بصفة عامة والمانيا الغربية بصفة خاصة عن طريق وسائل الاعلام الجماهيرية الغربية ، فى حين ذكر ١٤٪ انهم كونوا هذه الفكرة عن طريق الاتصال الشخصى مع الأقارب والاصدقاء وزملاء العمل . أما الذين اعتمدوا على وسائل الاعلام الجماهيرية فقد ذكر ٤٢٪ منهم أن مصدرهم لهذه الفكرة جاء عن طريق التليفزيون ، وقال ٣٦٪ أن مصدرهم لهذه الفكرة عن طريق الراديو ، فى حين ذكر ٨٪ أن الصحف كانت مصدرهم للفكرة التى كونوها عن الحياة فى الغرب[١٥] . كذلك أجرى استطلاع للرأى شمل ألفين من سكان مدينة بوخارست عقب الاحداث التى انتهت باسقاط حكم الرئيس الرومانى معلوماته عن تطور الاحداث فى رومانيا منذ اندلاع المظاهرات حتى سقوط حكم تشاوشيسكو وهى فترة استغرقت أسبوعين كاملين .

وقد كشفت نتائج الاستطلاع ان ٧٤٪ من الشعب الرومانى كان يعتمد فى معلوماته عن تطور احداث الثورة على الاذاعات الغربية ، وان ١٠٪ كانوا يعتمدون على وسائل الاعلام المحلية ، وان ٦٪ كانوا

يعتمدون على اذاعة بلغراد ، وان ٦٪ كانوا يعتمدون على اذاعات الدول الاشتراكية المجاورة ، وان ٤٪ كانوا يعتمدون على اذاعة موسكو .

اما بالنسبة للاذاعات الغربية فقد كانت نسبة الاستماع على النحو التالى : ٢٦٪ يستمعون الى اذاعة لندن و ٢٢٪ لاذاعة صوت امريكا و ١٤٪ لراديو أوربا الحرة و ١٢٪ لراديو الحرية[١٦] .

ومن ناحية أخرى ، أجرى استطلاع للرأى على عينة من سكان مدينة موسكو للتعرف على مدى مصداقية وسائل الاعلام السوفيتية ووسائل الاعلام الغربية عند الجمهور السوفيتى وقد كشفت نتائجه أن نسبة مصداقية وسائل الاعلام الغربية عند الجمهور السوفيتى بلغت ٦٨٪ فى حين لم تزد نسبة مصداقية وسائل الاعلام السوفيتية عن ٣٢٪ .

وقد تبين أن ارتفاع نسبة مصداقية وسائل الاعلام الغربية سببه اعتقاد المشاركين فى البحث أن وسائل الاعلام الغربية تتمتع بحريات أكبر من وسائل الاعلام السوفيتية . وقد كشف الاستطلاع ان وسائل الاعلام لا تتمتع بدرجة مصداقية واحدة عن الجمهور السوفيتى ، ذلك أنه بالنسبة لوسائل الاعلام السوفيتية فقد تبين أن نسبة مصداقية الصحافة تصل الى ٦٤٪ فى حين لا تزيد نسبة مصداقية التليفزيون عن ١٨٪ والراديو ١٢٪ والنشرات الحزبية ٤٪ وقد تبين ان ارتفاع نسبة مصداقية الصحافة السوفيتية عن غيرها من وسائل الاعلام المحلية ، هو اعتقاد المشاركين فى الاستفتاء بأن الصحافة السوفيتية تتمتع بحريات أكبر من غيرها ، ثم انه يسمح لها بنشر المقالات الانتقادية التى يكتبها اشخاص من غير اعضاء الحزب الشيوعى ، كما انها تتوسع فى نشر الانتقادات فى أبواب بريد القراء ، كذلك فقد تبين أن الصحف التى

تصدرها النقابات والاتحادات والجمعيات الجماهيرية أكثر مصداقية عند الجمهور السوفيتى من الصحف التى تصدرها الدولة والحزب ، لاعتقاد الجمهور بأن النوع الأول من الصحف أكثر حرية من النوع الثانى .

أما بالنسبة لوسائل الاعلام الغربية فقد تبين أن ٢٤٪ من المشاركين فى الاستفتاء لم يتعرضوا لوسائل الاعلام الغربية ، اما الباقون فقد ذكر ٧٦٪ أنهم يستمعون الى الاذاعات الغربية فقط . وذكر ٢٠٪ انهم يستمعون الى الاذاعات الغربية ويقرأون بعض الصحف الغربية ، وقد تبين أن النسبة الأخيرة من الفئات الأكثر تعليما بين الجمهور السوفيتى ، وهذه الفئة ترى أن درجة مصداقية الصحافة الغربية تزيد عن مصداقية الاذاعات الغربية لاعتقادها بأن الصحف الغربية أكثر حرية واستقلالا من الاذاعات الغربية ، بسبب خضوع الأخير لنوع من الأشراف الحكومى[١٧] .

وأهم ما نستنتجه من هذا الاستطلاع أن درجة المصداقية العالية لوسائل الاعلام الغربية بين الجمهور السوفيتى تشير الى قدر من التأثير تمارسه تلك الوسائل على اتجاهات التفكير عند المواطن السوفيتى .

- ٣ -
أبعاد التغيير فى النظام الاعلامى الشرقى

والسؤال الآن : هل تغير النظام الاعلامى الشرقى فى ظل إعادة البناء والعلنية ؟

من المهم التذكير مرة أخرى بأن النظام الاعلامى فى مجتمع ما ، إنما هو انعكاس للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى هذا المجتمع ، وقد قام النظام الاعلامى الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا ، على ضوء المفهوم الماركسى اللينينى للاعلام ، وهو مفهوم يرى ان الاعلام الاشتراكى ظاهرة ملتزمة وتخدم باستمرار أهداف الطبقة العاملة ، وأن رجال الاعلام مطالبون بالعمل باعتبارهم جزءا من هذه الطبقة[١٨] ، لذلك فقد تميز الاعلام الاشتراكى بعدة خصائص من أهمها : الواقعية والالتزام والجماعية[١٩] .

وقد تضمن المفهوم الاشتراكى للاعلام رفض الملكية الفردية لوسائل الاعلام ، كما أن من ابرز وظائفه : الدفاع عن النظام الاشتراكى والتوعية بالايدلوجية الاشتراكية[٢٠] ، وفى التطبيق العملى فقد تطلب اداء وسائل الاعلام لهذه الوظائف فرض الرقابة السابقة أو اللاحقة على النشر أو الاذاعة ، وتحريم نقد النظام الاجتماعى وقيادته ، فضلا عن قصر العمل فى وسائل الاعلام على أعضاء الحزب الشيوعى .

ومما لاشك فيه ان صورة النظام الاعلامى فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا تختلف كثيرا اليوم عما كانت عليه قبل البروسترويكا والجلاسنوست والاحداث الاخيرة فى دول شرق أوربا ، ويمكن ان نرصد الظواهر التالية :

- منح وسائل الاعلام حريات واسعة فى نقد النظام السياسى وقياداته ، مع الاعتراف بأن هذه الحريات تكاد تقتصر على الصحافة دون غيرها من وسائل الاعلام الجماهيرية كالراديو والتليفزيون .
- فتح ابواب الاشتغال فى وسائل الاعلام لكافة المواطنين ، دونما اشتراط العضوية فى الحزب الشيوعى .
- التوسع فى اتاحة فرصة التعبير امام كافة القوى السياسية ، والاهتمام برسائل القراء فى الصحف .
- اختفاء الرقابة على وسائل الاعلام ، سواء تلك التى تكون قبل النشر أو الاذاعة أو بعدها .
- سحب حق عقاب الصحف سواء بالتعطيل أو الالغاء أو الغرامة ، أو حق معاقبة الصحفيين من السلطات الادارية ، وقصرها على الجهات القضائية .

ونستطيع ان نقول ان النظام الاعلامى القائم الآن فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا قد استعار الكثير من مقومات وخصائص النظام الاعلامى الليبرالى ، ولكن يبقى ان نسجل تحفظا على قدر كبير من الأهمية ، وهو ان ملكية وسائل الاعلام فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا مازالت ملكية جماعية ، كما ان الحريات الممنوحة لوسائل الاعلام لم تترجم حتى الآن فى قوانين للاعلام والمطبوعات تحدد واجبات الاعلاميين وحقوقهم ، وتحمى هذه الحريات من الاطاحة بها .

والتصوير الحقيقى لواقع الاعلام فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا ، انها تعيش مرحلة انتقال من النظام الاعلامى الاشتراكى الى النظام الاعلامى الليبرالى ، وان الصورة النهائية للنظام الاعلامى سوف يحسمها ما ستسفر عنه التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى تلك المجتمعات .

الهوامش

(١) جورباتشوف . م : بيروسترويكا ، عملية اعادة البناء والتفكير السياسي الجديد ، لنا وللعالم أجمع . ترجمة وليد مصطفى وآخرين . عمان : دار الكرنك للنشر والتوزيع . الطبعة الثانية . ١٩٨٩ . ص ٨٠

(٢) The Times . April 22 , 1989 .

(٣) جورباتشوف . م : بيروسترويكا . ص ٧٧

(٤) المصدر السابق . ص ٨١ .

(٥) المصدر السابق . ص ٧٦ .

(٦) خلف . عباس : حركة التجديد في الأدب السوفيتي (الطليعة الأدبية) العدد ٢٠١ ، ١٩٩٠ م .

(٧) بركات . سهير : الاذاعة الدولية . الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ٢١ - ٢٤

(٨) مانكيكار . د . ر : التدفق الحر من جانب واحد . ترجمة فائق فهيم (اليونسكو) ص ٦٩ .

(٩) The times : November 3 , 1985 .

(١٠) Kivikur . Ullmaija and Varis. Tapio . Tapio : Approaches to Inernational Communication . (Publications of the Finish National Communication for Unesco). No. 35. Helsinki. 1986 . P.P. 204 — 209.

(١١) Burto . Paulu: Radio and Television Broadcasting on the European Continent . (University of Minensota Press) U . S . 1967 . P.P . 38 — 40 .

(١٢) Thomson . Foundation : International Communication . (Longman) London . 1988 . P.P. 236 — 23 .

(١٣) Unesco : World Communication . The Unesco Press . Paris . 1989 . P.P. 132 — 137 .

(١٤) جورباتشوف . م . بيروسترويكا . ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(١٥) Franz . Karen Annette : The Coverage of the Berlin Wall on Local Tele vision . (Union for Democratic Communiction Conference) (UDC) . California University . San Diego . U .S .A . October , 11/14/1990 .

(١٦) Cha — Jae Young : Changeing Communication In a Socialist Country . (UDC) , October , 11/14/1990 .

(١٧) Bradford. Keith : An Empirical Analysis of Change in the Soviet Press. (Media and Crisis Conference) Laval University , Quebec, Canada. October, 1990 .

(١٨) لينين : حول الصحافة . بغداد : (منشورات الطريق الجديد) . الجزء الاول . ١٩٧٧ .

(١٩) Markham. W. James: Voice of the Red Gianst Communication in Russia and China. (The Iowa State University Press). U. S. 1967. P.P. 23- 27.

(٢٠) فابر . فرانز : الصحافة الاشتراكية . (معهد الاعداد الاعلامي) . دمشق . ترجمة نوال حنبلي واخرون . ١٩٧١ . ص ١١٢ - ١١٥ .